رسالة حيفا

قصة بقلم محمد شحادة كرزون

أكاد المح ما بك من دهشة اذ تفض هذه الرسالة الغريبة ، وتتزاحم في مخيلتك الاسئلة ، تريد ان تعرف لها معنى .

هي ليست من باريس كما يبدو لك من المغلف . ولا من المحامي جاك هيدسون ايضا .. بل من فلسطين ! أنا اكتب لك من فلسطين ! هذه التي تسمونها الآن « اسرائيل » !..

بي حيرة . كيف ومن اين ابدأ معك . ان كل ما في رسالتي يبدو غريبا. ليس بأغرب من واقعك كفلسطيني على أي حال .بل ان قصة رسالتي لقطة من مأساتكم ..

قصتي معكم بدأت يوم انزلنا بحيفا اسرى بعد الحرب الثانية ... اختار الانكليز معتقلاتنا في فلسطين .. كان آمر معتقلنا اخوك احمد ، لطيفا جدا .. وما كان لنا ـ كأسرى ـ ان ننتظر مثل معاملته لنا . قدم لي تسهيلات كثيرة .. ونشأت بيننا صداقة ومحبة مع الزمن ..

انا اعرف اني اثير بذلك اشجانك .. ويحزنني حزنك الذي تجده اذ اذكرك بأخيك . ولكن . القصة : لك معي قصة يجب ان تعرفها .. لا شك انأحمد كان يذكر امامكم اسم «ج. بلاك المهندس الالماني الاسير » هو انا يا صديقي .

عرفت منه انكم تحبوننا (الالمان) لاننا اضطهدنا اليهود . اننا نلتقي معكم في هذه الناحية .. ما افظع ما آل اليه مصيرنا ! .. آه لو كنا نجحنا !.. اذن لارحنا العالم منهم !. .

في حوادث حيفا ، عندما قتل اخوك كنت الى جانبه في المستشفى ، اصغي الى كلماته الاخيرة .. مع آخر نبضات قلبه الكبير : « يا جيم .. هي النهاية . ان أندم على شيء فلاني احرم مشاركة اخوتي في معركتنا .. سنتحرر يا جيم أليس كذلك ؟! وتبقى بلادنا حلوة نقية جميلة .. خالية من الاقذار : خالية من اليهود .. لي رجاء عندك يا جيم : زوجتي وابنتي وصيتي اليك . هما غريبتان من هنا . ليس لهما من قريب ! » بكى كالطفل بحرقة ! وبكيت معه .

ما أعز دموع الرجال !.. أن يسيل دم بطل وينثال من صدره شيء عظيم . ولكنه ليس مؤثرا .. اما ان يبكي فذاك شيء مؤلم حقا .

مررت بنفس الموقف ! أتدري متى؟ عندما قهرونا واضطررنا للاستسلام.

ـ لتطمئن يا احمد . انت بخير . ستشفى عن قريب . وتشارك اخوتك في معركة مظفرة .

ـ أأموت قرير العين يا جيم ؟ ثقتي بك عظيمة ـ كثقتي بالنصر ـ أنت اخي وصديقي . زوجتي اختك. ابنتي صديقتك الصغيرة . ارعها..

وشرق بدموعه وراح ينتحب كالاطفال !..

لن انسى مدى حياتي منظرا آلمني كهذا .

مات ابي وانا في الجامعة فبكيته وحزنت عليه . وفقدت امي في غارة جوية فتألمت لفقدها .. اما احمد ! أقسم اني عندما فقدته ، شعرت كأن شيئا قد تغير بالنسبة لي على هذه الارض .. ارضكم التي بدأت احبها .. في المعتقل عشت الاشهر الاولى محطما بلا هدف !

وجاء احمد ليمسح جروحي وليعيد الي ثقتي بنفسي ! واملي بالحياة . فلما مات اضعت مصباحا أنار لي ظلمة الطريق .

ـ لتطمئن يا أحمد . غدا تنتصرون . لن تغلبكم حثالة الشعوب على حقكم .

ـ ما اروع هذه الكلمة ـ النصر ـ .. اخي اسمه حسين خيري واهلي الآن في صيدا ينتظرون استرداد صفد ... اتصل به يا جيم بعد ان تنتهي المعركة . واودعه أمانتي ... بحق صداقتنا يا جيم !

الحقيقة ، انكم لم تكونوا لتتصوروا الهزيمة ابدا . كلكم كان يتحدث عن النصر ... ونحن أيضا ، كنا نجزم انكم المنتصرون . ولكن الجولة لم تكن في صالحكم ... واخرجتم من دياركم ... وسقطت مدنكم الواحدة تلو الاخرى وفجأة ، قامت دولة اسرائيل . قامت ، في الوقت الذي كانوا يحملون لكم فيه الخيام ليكدسوكم بها ! ويستدروا عطف الناس في العالم ليقدموا لكم الخبز !!..

ارأيتم كيف لم ينسكم العالم الحر ؟!..

وبدأ الامر ثقيلا محرجا ، هذه الزوجة ، المصابة ، الحزينة ، وحيدة حبست عن اهلها مع هذه الطفلة البريئة الشابة !. فاستسلمت في يأس وحزن لمصير مر !.. في ايام الآحاد التي تلت سقوط حيفا ، كانوا يسمحون لنا بالتجول ساعات محدودة من النهار في مناطق معينة ، وكان باستطاعتي الوصول اليهما ، قلت لها ذات أحد:

ـ آه . لست ادري ما العمل . لا سبيل الى وصولك سالمة الى اهلك . ووجودك هنا خطر ...

ماذا كنت انتظر منها ان تجيب ؟ لم تكن الكلمات تخرج من حلقها الا وتخنقها العبرات المحرقة وشهقات الارملة المقطوعة ، وبكاء مر يوجع القلوب !...

الطفلة الصغيرة ... صديقتي (امل) شحبت واصفر لونها . هذه التي تعودت ان تنادي كل اصحاب ابيها : بابا . كل انسان يعرفه ابوها فهو : بابا

كنا نجهش بالبكاء انا وامها عندما تسألني بلهفة وشوق محرقين :

ـ بابا ـ أين بابا ؟.. ألم تره ..

هل كانت تعتبر كل انسان من اصحاب ابيها بابا لان القدر سيفاجئها فيقتال اباها الحقيقي ؟

ـ سيأتي عما قريب . وسيحمل لك هدايا جميلة والعابا ...

وقل السؤال المتلهف المحرق . ثم تلاشى ، ومع الزمن لم يعد في ذهنها الا انا : (أب تقليد) !..

ـ اسمعي يا سيدتي . بعد غد سينظمون قوائم جديدة للاحوال المدنية . فرصتنا الوحيدة ان نمثل . نمثل حتى تنجلي الغمة . أنت منذ اليوم تدعين (ريتا) . سندعي ان هذه ابنتنا نحن الاثنين ... لقد اخبروني اليوم انهم سيستخدمونني مهندسا في مديرية الري لقاء اطلاق سراحي .

ـ كما تشاء .

ان خدمة هؤلاء ايها السيد من ابغض الاشياء الى نفسي ولكن ما العمل؟ هل تدرك معنى ان تخدم انسانا تكرهه ... انت مكره على هذه الخدمة ولن تستطيع ان تقول لا . الانكليز عندما غادروا بلادكم سلموا المعتقلات تسليما لليهود .. وانتقلت ملكيتنا اليهم بغارة مثلوها تمثيلا .

والحقت زوجة اخيك في سجل احوالي .. واصبحت (آن) امل ابنة اخيك ابنة لي . واستخدموني في مديرية الري .

وتمضي الايام ، والامور تسير بمنطق مقلوب . وتوقع دولكم الهدنة مع اليهود . هنالك شعرت انكم ضعتم بين عدو لئيم ! وبين الكراسي الضخمة التي تميد باصحابها تضج برائحة الخيانة !.. وتبدأ سلسلة الانقلابات تعبر عن نقمة وقلق .. والاستعمار يتقاذفكم يريد ان يقضي عليكم .

امرأة اخيك كانت تنتقل من سيء الى اسوأ . كان شيئا ما في جوفها يأكلها اكلا ، ويحيلها الى هيكل ذاو . يحمل في رأسه آلاما فظيعة . وتنقل امرأة اخيك الى المستشفى وتوضع تحت الحجر ... السل ينهش قلبها ... وبقيت شهرا ... ثم ماتت !..

في المستشفى يتكرر الموقف ، واعود اؤكد للراحلة كما اكدت لزوجها صديقي : ـ ابنة صديقك يا اخي . ارعها صديقتك الصغيرة . يتيمة وحيدة غريبة .

ـ لتطمئني يا سيدتي . ستظل بخير . وتبقين انت فوق رأسها .

كانت تعرف اني أكذب اذ اقول لها « ستبقين انت فوق رأسها » .. ما اغرب ما يمر بنا من فصول الدنيا ؟! هذا الالم العظيم . مخرج هذه الرواية هل اراد لي ان اكون لهذه البنت ابا وأما ؟! هل اقوم بدوري تماما ؟ لا اشك اني نجحت . عرفت هذا من النظارة الذين مثلت او امثل امامهم .

هذه المخلوقة الشريدة ! اتعس انسان في الوجود ! البريئة ! بنت السابعة او الثامنة يجب ان ارعاها ... ورعيتها !

انسيتها شيئا فشيئا قصتها الاليمة . حرام ان يحمل هذا العقل الصغير مأساة كهذه ! ان تحرم من دنيا طفولية كغيرها من اطفال العالم.

بعد ثلاث سنوات كانت آن قد انهت تعليمها الابتدائي . وظهر تفوقها . كنت أشعر بفيض من السعادة عندما تعود مساء لتفتح كتابها الصغير ذا الصور الملونة وتتهجى الحروف او تقرأ الجمل بلثاغة الاطفال ، وتصر ان اشاركها اغنياتها .

لكن شعورا من الخوف والقلق كان ينتابني : « يجب ان اعلمها ـ من يدري قد لا ادوم لها ... يجب ان ازودها بسلاح تواجه به حياة صعبة.. ثم ان هذا لا يعني انني في حل من وعدي : هذه البنت لها اهل يجب ان تصل اليهم... صحيح اني ابوها امام هؤلاء . وهي تعتقد كذلك الآن ».

وكان علي ان أتتبع اخباركم واهتم بها وكنت اصغي باستمرار لرسائلكم تذاع من محطة الاشرق الادنى او القدس . وكثيرا ما سمعت رسائلك تسأل عن زوجة اخيك وابنته ، ولم اكن لاستطيع ان افعل شيئا . اسمع نداءك فينشب صراع قوي بيني وبين نفسي . ما من احد في العالم يعرف لهذه الرسالة المتكررة من جواب الا انا ... ولكني لا استطيع ان اجيب : لن اعرض نفسي واعرض ابنتي للخطر !.. وظل نداؤك . وظلت رسائلك استغاثات حيرى اغالب نفسي الا ارد عليها ! وتنقطع بعد ذلك رسائلك الملهفة المتسائلة كأنما يئست من جواب شاف كمن رج صوته بالنداء في واد مقفر عميق ... لا يسمع الا رجع صوته ابدا ...

وتنقطع اخبارك عني . وتبدو المسؤولية لي هائلة : « كيف اتصل بهم ؟ ترى اين عمها ؟ عمهذه البنت ؟.. يقولون ان الفلسطينيين عرضة للنقل الى اي مخيم في أي لحظة !. من يدري ربما نقلوه الآن .. » وهكذا ييئست من فرصة للاتصال بك ، في الوقت الذي بدأ اليأس يعشعش في نفوسكم .. اليأس من أمل في العودة ... وبين الامم المتحدة ، ووفودكم الكثيرة ، وبين نشاط الاخطبوط اللزج الكريه « الصهيونية » يضيع حقكم مرة اخرى ! حقكم الطبيعي كشعب يريد ان يحيا ... أأقول لك شيئا ؟! ان حقكم لا يرجعه الا انتم لانه حق . لا يسأل عن الحق الا صاحبه ! هل تدركون هذا ؟!..

ولم اعد اذكر الا اسمك : وماذا يفيدني الاسم ؟. اتفيد القطعة الخشبية من حطام سفينة لنجاة غريق بين جبال من الموج ؟؟ سمعنا عن قصص كهذه : تنجي الخشبة الغريق وتقذف به الى الشاطيء ... ولكني اقول الحق : كنت يائسا .. الاسم لا يفيد شيئا في حالة كهذه .

وتنهي (آن) تعليمها الثانوي ، وتلتحق بالكلية العبرية ـ قسم اللغة العربية ـ هل تدري انهم هنا يدرسون لغتكم . وادبكم . حتى لهجاتكم يدرسونها وادبكم الشعبي ؟.. وتنهي السنة الاولى والثانية بتفوق .

الا ان شيئا جديدا يظهر في حياتها الدراسية : بدأت تناقش اساتذتها عن العرب . وادبهم وتاريخهم كما لو كانت عربية ! ـ اعني كما لو كانت تعلم حق العلم انها عربية ـ ...

منذ مطلع السنة ، ومدير الكلية يستدعيني ويلفت انتباهي الى انها تنحرف ـ كما يقول ـ وتنطرف في أرائها . مرة استدعاني ليقول لي :

ـ لن نسمح بمثل هذه الافكار تناقشها ابنتك امام الطلاب والاساتذة ... وننظر بعد اليوم الى الامر نظرة اخرى . ابنتك تقول : « ان العرب هم اهل الحق !واصحاب البلاد الشرعيون . وانه لا يجوز مطلقا ان يطرد شعب ليحل محله آخر . وتقول ايضا ان الزمن ليس في صالح دولة ولدت لا تحمل معها مقومات الحياة.

ما رأيك ؟! تقول هذا وتناقشه في جامعتهم ...

اجد للمدير العذر ان اسمعني مثل هذا التهديد ، وكذلك فاني اعذر (آن)

اجد للمدير العذر لانه مشبع في صميمه باسطورة الميعاد ، ومؤمن اعمق الايمان بدولته . ولن يسمح بمثل هذا « التطرف ! » من قبل تلميذة « أجنبية » !

واعذر آن لانها ليست هي التي تتكلم !. بل جذورها . اعماقها الممتدة في دمها عبر أخيك حيث تتصل بهذه الامة التي تدافع عنها بحرارة وايمان دون ان تدري لذلك سببا . انا واثق انها لا تكاد تعلم حق العلم انها عربية لان الجو والاحداث الضخمة . ابعدت من ذاكرتها كل ما يقربها من اصلها ... ثم ، من الذي يعلم الطفل شيئا عن مفاهيمه القومية والوطنية ؟ اليسوا أهله ؟ اما (آن) فلم يعلمها احد مثل هذه الافكار اابوها ؟ مسكينة لم تنعم بحب الاب الحقيقي .. ولا بحنان الام !.. وانا لم احاول ان اعلمها شيئا من ذلك.ان مصلحتها، مصلحتي تقضيان بذلك.

ولكنها جذورها . اعماقها . شدتها الآن الى امتها . فهي تقف مثل هذا الموقف من الافكار التي تدسها الجامعة عن العرب !...

لا اشك انها ستعاني كثيرا ، وستصطدم بعقوبات كثيرة خلال سنتيها النهائيتين ! ولكن لن اتخلى عنها ابدا ...

آخر مرة استدعاني مدير الكلية على عجل وقابلني بعاصفة شديدة من الحنق والتهديد :

ـ يا سيد جيم . الكلية تحذرك للمرة الاخيرة ! ابنتك معرضة للطرد ! انت المسؤول عنها وبامكاننا اتهامك بانك تشبعها بمثل هذه الافكـــار المعادية . ولكننا نحب ان نمنحك واياها فرصة اخيرة ! اننا ندرك يا سيد جيم الدوافع البعيدة التي تدفعك الى تلقين ابنتك مثل هذه الافكار ... فانت الماني طبعا !..

صعقت لهذه الجملة . ومادت الارض بي وانا اسمع كلماته الساخرة ولقد هممت بلطمه ولكنني قلت له وانا اصر على اسناني :

ـ يا سيدي المدير . ما الخبر ؟ لا اكاد افهم من الامر شيئا ؟.

فنظر الي نظرة اتهام وكانه يشك فيما اقول ويقذف في وجهي اوراقا عرفت منها انها تقرير شهري كتبته آن لمدرس التاريخ ..

ـ انك تجيد التمثيل يا سيدا جيم ! يبدو من تعابير وجهك انك لا تعرف عن الموضوع شيئا مع اننا نجزم انك شاركت ابنتك في تصميمه.. كلمة اخيرة اقولها لك: ان كنت تحب لابنتك مستقبلا هادئا فلا تدعهـا تتطرف . الامر بيدك . ابنتك ذكية وهذا ما يجعلنا نقف منها موقفـا متراخيا كهذا ولكنا لن ندعك تستغله . الحق اني ما كنت اعلم من امـر هذا التقرير شيئا : يعطونها موضوعا « فلسطين ارضنا الاولى »! فاذا بها « تتطرف » ! واذا بها تهاجم واذا المدير يتهمني باني السبب وانـي المسؤول !

ماذا اقول لهم ؟ هل اقول لهم : هذه الفتاة التي بينكم عربية ؟

أأقول لهم : ان الصور المؤلمة التي مرت بها كحلم ضبابي عن مأساتها قد انبعثت فجأة من اعماقها تتفجر بغضا وكراهية ؟

انهم يجهلون حقيقة ابنتي ! بل انها تجهلها كذلك !!..

هذا الامر يجعلني في حيرة مربكة : اريدها ان تعرف من هي .. ولا أريد !.. خير لها ان تظل هكذا .. تجهل حقيقة اصلها ، تجهل قصتها . هذا أفضل . كم ستصدم بقسوة لو علمت ... لن اضعها وجها لوجه امام الم فظيع . هي تعلم اننا ـ أنا وهي وامها ـ من الاسرى الالمان وان امها ماتت . اما ابوها ـ اخوك ـ فشبح غامض جدا لا يعبر عن شيء ابدا. لست ادري ما التفسير المنطقي لهذا الانغلاق ... النسيان المطبق ! ولكن الامر في مثل هذه الحال في مصلحتنا (أنا وهي)

قالت لي ونحن نخرج من عند المدير :

ـ اعذرني يا ابي .. اني اسبب لك مشاكل انت في غنى عنها .

ـ لا بأس يا (آن) أنا لا الومك في شيء

ـ اني .. الا تشعر يا أبي اني اقول الحق ؟ قل اني لست مخطئة.. اني على صواب ان العرب انبل من هؤلاء ! انهم أصحاب حق .

ـ أجل انهم كذلك .

ـ اوه اني مرتاحة تماما يا ابي اذ تشاركني رأيي و ... ولكن يـا أبي ما السر في حبنا انا وانت للعرب ؟.. أتساءل كثيرا هل هناك مـا يربطنا بهم يا ابي ؟!

طول الطريق كنت في صراع مع نفسي ... ووجدتني في البيت اقول لها دونما تفكير :

ـ آن ... امك عربية يا آن ...

ورايت الدهشة العظيمة التي ارتسمت في تعـابير وجههـا

ـ هل امي عربية حقا يا ابي .. لماذا ... لماذا لم تقل لي هذا قبل يا ابي ؟ واجهشت بالبكاء . بكاء عنيف وبعصبية بالغة .

لا اعلم ما اذا كانت تبكي الما او سرورا . او لمجرد انني قدمت لها مفاجأة . استطعت بطريقة ما ان اقف عند هذا الحد .. ولا اطمع في المزيد بعد الذي رأيته ... تصورت اني لو اعلمتها بالامر للتلتها . حولت الحديث تماما .

منذ ذلك اليوم ، شعرت اني قربت من هدف .. ولكنه خطير !... « عمها . يجب ان اعثر على عنوانه .. ولن اعدم طريقة للاتصال به ... يجب ... ان يعلم بالامر . آن امانة في عنقي ..! وليست ابنتي !.. »

حتى انا الآخر اصبحت آن بالنسبة لي كل املي في الحياة !.. احس اني اعيش من اجلها .. ولكن لا بأس ، المهم ان تصل الى اهلها سالمة .. وسيكون بعد ذلك امور اخرى .

ويأتيني الفرج على يد السيد جاك هيدسون . صديقي الفرنسي القديم . منذ ايام الدراسة الثانوية . ظل على اتصال بي بعد وقوعي أسيرا وظل صديقا وفيا رغم عداء دولتينا ...

اوائل هذا الشهر خبرني انه سيصل الى ميناء حيفا وسيزور الناصرة واستقبلناه انا وآن على الميناء ولما وقف على قصة آن تألم جدا وقال فجأة:

ـ جيم ... استطيع ان اساعدك

ـ تساعدني وكيف ؟!

ـ اخي (البرت) يعمل في وكالة الغوث في دمشق في قسم التسجيل والاحصاء . ان بامكاننا بواسطته معرفة عنوان هذا الشخص عم هـذه البنت والاهتداء اليه .

ـ اشكرك جدا ، واحب ان اوضح لك ان (آن) لا تعرف من امرها شيئا فارجوك عدم الاشارة الى شيء من هذا ابدا .

ـ لتطمئن .. املي في ان استطيع مساعدتك عظيم .

ويغادرنا جاك ويعود الى فرنسا ويصلني بعد اسبوعين كتاب يخبرني بعنوانك ويخبرني ان اخاه كتب له ان صاحب الاسم يعمل معلما في وكالة الاغاثة ايضا .

أخي حسين خيري : انا في حالة غريبة من الانفعال والقلق ـ هل تصدق اني لم اجرؤ على الكتابة اليك اول الامر .. اني اشعر اني افقد آن .. ابنتي صديقتي !.. ابنة خيك !..

اني اقترب من تحقيق عهد قطعته امام صديق على فراش الموت .. لا بأس ، سأتحمل فراقها اذ اقتضى الامر .. اذا كان هذا في مصلحتها . انا الآن القي اليك بمشكلة اريد حلا لها .

راسلني على عنوان السيد جاك هيدسون المحامي . اعلمني بما تراه هل عرفت الان قصة هذه الرسالة الغريبة !..

هل زالت الدهشة التي اعترتك وانت تفضها وترمق عنوانها الغريب ؟ ام ترى الدهشة زادت ؟ انا لا شك ان امرا يفجأ الانسان كهذا لا يتحمل بمثل هذه السهولة ولكنها ظروفكم ومأساتكم ، ففيها حوادث اغرب من الخيال

تحياتي اليك وتحيات آن التي لم تعرفك بعد واسلم

حيفا. ج. بلاك

محمد شحاده كرزون

اعداد « الآداب » الممتازة

اطلبوا الاعداد الممتازة التي اصدرتها « الآداب » في اعوامها الماضية عن « القصة » و « الشعر » و « الفنون » و « المسرح »